المحاضرتان السابعة والثامنة

ثقافة الجاحظ (١)

—«»—

مرّ بنا ان الجاحظ طلب العلم في ابتداء امره في كتّاب والظاهر ان الكتاتيب كانت شائعة في عصر الجاحظ فكان يتردد اليها اكابر علماء اللغة أمثال النضر بن شميل وابي محمد اليزيدي وابي زيد الأنصاري احد أساتيذ الجاحظ حتى قال النضر بن شميل : كنا ثلاثة في كتّاب ، انا وابو زيد الانصاري وابو محمد اليزيدي .

فاذا كانت كتاتيبهم في تلك الايام الطيبة على نحو كتاتيبنا في هذه الديار لا تطلع عليها شمس ولا يهبّ في نواحيها نسيم فمن ظلمة الكتّاب الذي ترعرع فيه الجاحظ انبلج ضياء أضاء مدارك العرب احد عشر قرناً ولا ندري الى اي قرن يمتد .

ولكن من الذي يعلمنا كيف انصرف الجاحظ من بعد خروجه من الكتّاب الى التوسع في مذاهب الأدب والدين والعلم والفلسفة ومن الذي رغّبه في هذا التوسع فاننا نجهل هذا كله وانما نعلم ان اباعثمان قرأ على طائفة من العلماء لم تغب عنا اسماؤهم واذا علمنا هذا هان علينا ان نعرف كيف نما عقل الجاحظ فلسنا نرتاب بان لأساتيذه اثراً بليغاً في نمو عقله وامتداد ثقافته .

من هم أساتيذ الجاحظ ؟

سمع الجاحظ من ابي عبيدة والأصمعي وابي زيد الانصاري واخذ النحو عن الاخفش

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي تي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أبي الحسن وكان صديقـه واخذ الكلام عن النظّام وتلقف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد [1] .

لقد كشف لنا هذا النبأ الغطاء عن ثقيف الجاحظ فاذا بحثنا عن خصائص الرجال الذين روّضوا عقل أبي عثمان ونقبنا عن المذاهب التي عرفوا بهـا استنبطنا من مبحثنا ان للجاحظ أربع ثقافات : تفقهه في اللغة والأدب والدين والعلم .

اما اللغة وربما كانت هذه الناحية أعجب نواحي الجاحظ فقد اخذها عن اهلها الذين لم يفسد بيانهم شيء من العجمة فاذا ملك الجاحظ من زمام الفصاحة ما لم يملك غيره من الكتّاب فان لمخالطته عرب المربد سراً في هذه الفصاحة وسننظر في هذا كله في كلامنا على لغته .

واما الأدب فقد خرّجه فيه رجال كانوا مضارب الامثال فيه واذا قلنا الادب أردنا بهذه اللفظة ما كانوا يريدونه بها في عصر الجاحظ فالأدب كان يتضمن أخبار العرب وأشعارهم وملحهم ونوادرهم وغرائبهم وما شابه ذلك .

وكذلك الدين والعلم والفلسفة فقد استضاء في هذا كله بضياء رجل كان مضرب المثل في مذهبه .

فلننظر في كل من اساتيذ الجاحظ نظرة عجيلة حتى نلمّ الماماً بعقول الذين ثقّفوا رجلاً مثل الجاحظ فان الإلمامة من هذا الشكل تمهد لنا مجازاً الى الاطلاع على أسرار عبقرية الجاحظ لاننا اذا علمنا ان اباعثمان قرأ على أشياه النظام وابي عبيدة والأصمعي وابي زيد الانصاري والأخفش ابي الحسن واخذ اللغة عن عرب المربد سهل علينا بعد هذا كله أن ندرك سرّ هذه الآفاق التي تبسّط فيها الجاحظ واذا أضفنا الى معرفتنا هذه مانعرفه من طبيعة الكتب التي كان يقرؤها في حياته ومن وَلَعه بالكتب على وجه عام لم تشكل علينا نشأة هذه العبقرية الفتانة .

من هو ابوعبيدة ومن هو الاصمعي ومن هو أبو زيد الانصـاري ومن هو الأخفش ابوالحسن ومن هو النظّام وما هو رأي الجاحظ في اساتيذه ؟

---

(١) معجم الادباء (الجزء السادس ص٥٦) مطبعة هندية بمصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلنبحث قبل كل شيء عن جماعة العلماء الذين تولوا تثقيف الجاحظ من ناحية الأدب وأزيد بهذه الجماعة أباعبيدة والاصمعي وأبا زيد الانصاري والأخفش اباالحسن ولنذكر على سبيل الايجاز آراء اهل عصرهم فيهم[1] .

اما ابوعبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري فهو الذي قال فيه الجاحظ نفسه : لم يكن في الارض خارجي ولا اجماعي أعلم بجميع العلوم منه .

وقد كان ابونواس يتعلم منه و يقول فيه : ذاك أديم طوى على علم .

أقدمه هرون الرشيد من البصرة الى بغداد سنة ثمان وثمانين ومائة وقرأ عليه اشياء من كتبه .

وقد كان الفضل بن الربيع يقول : هذا علامة اهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه . الا انه كان سيء العبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمة .

وقد كان جبّاهاً لم يكن بالبصرة احد الا وهو يداجيه و يلقيه على عرضه .

خرج مرة الى بلاد فارس قاصداً موسى بن عبد الرحمن الهلالي فلما قدم عليه قال موسى لغلمانه : احترزوا من أبي عبيدة فان كلامه كله دق ثم حضر الطعام فصبّ بعض الغلمان على ذيله مرقة فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق وانا اعطيك عوضه عشرة ثياب فقال ابوعبيدة : لا عليك ، فان مرقك لا يؤذي ، اي مافيه دهن فقطن لها موسى وسكت .

وكان الأصمعي اذا أراد الدخول الى المسجد قال : انظروا لا يكون فيه ذاك يعني أبا عبيدة خوفاً من لسانه .

ولما مات ابوعبيدة لم يحضر جنازته احد ، لانه لم يكن يسلم من لسانه احد، لاشريف ولا غيره وكان وسخاً ألثغ مدخول النسب مدخول الدين يميل الى مذهب الخوارج وكان لا يقبل شهادته أحد من الحكام .

كانت ولادته سنة عشر ومائة في الليلة التي توفي بها الحسن البصري .

وتوفي سنة تسع ومائتين بالبصرة وقيل سنة احدى عشرة وقيل سنة عشر وقيل سنة ثلاث عشرة ومائتين .

(١) رجعت في الكلام عليهم الى الانباري صاحب الطبقات والى ابن خلكان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان سبب وفاته ان محمد بن القاسم بن سهل النوشجاني أطعمه موزاً فمات منه ثم اتاه ابوالعتاهية فقدّم اليه موزاً فقال له ابوالعتاهية : ماهذا يا ابا جعفر قتلت اباعبيدة بالموز وتريد ان تقتلني به ، لقد استحليت قتل العلماء .

وتصانيفه تقارب مائتي مصنف منها كتب في الحمام والحيّات والعقارب والخيل والابل والزرع اي في الموضوعات التي عالجها الجاحظ ذاته .

* * *

واما الأصمعي فهو صاحب لغة ونحو وامام في الاخبار والنوادر والملح والغرائب وهو من اهل البصرة قدم بغداد في ايام هرون الرشيد .

قيل لأبي نواس : قد أحضر ابو عبيدة والاصمعي الى الرشيد فقال : اما ابوعبيدة فانهم ان امكنوه قرأ عليهم اخبار الاولين والآخرين واما الاصمعي فبلبل يطربهم بنغماته .

كان حسن الانشاد والزخرفة لرديء الاخبار والاشعار حتى يحسن عنده القبيح .

وقال عمر بن شبة : سمعت الاصمعي يقول : أحفظ ستة عشر الف ارجوزة .

وقال اسحق الموصلي : لم ار الاصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه .

وكان الشافعي يقول : ما عبّر احد عن العرب باحسن من عبارة الاصمعي .

وقد حرص المأمون على الاصمعي وهو بالبصرة ان يصير اليه فلم يفعل واحتج بضعفه وكبره فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيّرها اليه ليجيب عنها .

كانت ولادته سنة اثنتين وقيل ثلاث وعشرين ومائة وتوفي في صفر سنة ست عشرة وقيل اربع عشرة وقيل سبع عشرة ومائتين بالبصرة وقيل بمرو .

* * *

واما ابو زيد الانصاري فهو من أئمة الادب وغلبت عليه اللغة والنوادر والغريب .

كان ثقة في روايته وكان سيبويه اذا قال : سمعت الثقة أراد به ابا زيد الانصاري .

حدّث ابوعثمان المازني قال : رأيت الاصمعي وقد جاء الى حلقة ابي زيد المذكور فقبّل رأسه وجلس بين يديه وقال : انت رئيسنا وسيدنا من خمسين سنة .

وكان الثوري يقول : قال لي ابن مناذر أصف لك اصحابك : اماالاصمعي فأحفظ الناس واما عبيدة فأجمعهم واما ابو زيد الانصاري فأوثقهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و يروى عن ابي عبيدة والاصمعي انهما سئلا عن ابي زيد الانصاري فقالا : ما شئت من عفاف وتقوى واسلام .

كانت وفاته بالبصرة في سنة خمس عشرة وقيل اربع عشرة وقيل ست عشرة ومائتين وعمّر عمراً طويلاً حتى قارب المائة وقيل عاش ثلاثاً وتسعين سنة وقيل خمساً وتسعين وقيل ستاً وتسعين .

* * *

واما الأخفش ابو الحسن فهو من اكابر أئمة النحو في البصرة .

أخذ النحو عن سيبويه وكان اكبر منه وكان يقول : ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً الا وعرضه عليّ وكان يرى أنه أعلم به مني وانا اليوم اعلم به منه .

حكى ابو العباس ثعلب عن آل سعيد بن سالم قالوا : دخل الفراء على سعيد المذكور فقال لنا سعيد : قد جاءكم سيد اهل اللغة وسيد اهل العربية فقال الفراء : اما ما دام الأخفش يعيش فلا .

وكان الأخفش أجلع والأجلع الذي لاتنضم شفتاه على أسنانه والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما وكانت وفاته سنة خمس عشرة ومائتين وقيل سنة احدى وعشرين ومائتين .

هذه جماعة العلماء الذين اخذ الجاحظ عنهم النحو واللغة والنوادر والغريب والاخبار والملح ولا ندري ماذا اخذ عنهم ايضاً .

وللجاحظ رأي في أساتيذه فاذا اتسع له مجال النقد تقدم ولم يتهيب والظاهر انه كان يستعصي عليه في بعض الاحايين فهم كلام أستاذه في النحو الاخفش أبي الحسن حتى قال له يوماً [1] .

« انت اعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ، وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم اكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ قال : انا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعوني اليه

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٤٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلّت حاجاتهم اليّ فيها وانما كانت غايتي المنالة فانا اضع بعضها هذا الموضع المفهوم لتدعوهم حلاوة مافهموا الى التماس فهم ما لم يفهموا وانما قد كسبت في هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت ولكن ما بال ابراهيم النظّام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ثم يأخذها مثلي في موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم اكثرها » .

من هذا نتبين لنا ناحية من نواحي عقول اساتيذ الجاحظ فلئن كان الاخفش من اكابر النحو يين فلقد كان صاحب حيلة وفطنة يعرف كيف يتصرف في جرّ مرغوب . وكما ان ابا عثمان نقد الاخفش في عمغمته في النحو فقد نقد الاصمعي وابا عبيدة والاخفش في مقدار نظرهم في الشعر فقد قال [1] :

« طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لايحسن الا غريبه فرجعت الى الاخفش فوجدته لايتقن الا إعرابه فعطفت على ابي عبيدة فوجدته لاينقل الا ما اتصل بالاخبار وتعلق بالايام والأنساب فلم اظفر بما أردت الا عند أدباء الكتّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات ... حتى قال الصاحب على اثر هذه الحكاية : فلله ابو عثمان فلقد غاص على سر الشعر واستخرج أرقّ من السحر » .

غير أن هذا النقد قد لا يخلو من شيء من الانحراف عن الصواب فقد قال الجاحظ في الاصمعي : طلبت الشعر عند الاصمعي فوجدته لايحسن الا غريبه ولكن الذي وصل الينا من امر الاصمعي ان له آراء في الشعر لا تدل على انه لا يحسن الا غريبه حتى كان الرشيد يقول له : يا أصمعي ماتطاق في الشعر وقد كنت ذكرت لكم في محاضرتي الاولى رأيه في بشار ومروان بن ابي حفصة فان الذي يقول في بشار : سلك طريقاً لم يُسلك وأحسن فيه وتفرّد به وهو اكثر تصرفاً وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعاً ومروان لم يتجاوز مذهب الاوائل، ان الذي يقول نظير هذا القول قد يحسن من الشعر على ماانعقد غير غريبه .

مالنا ولهذا فاننا نتكلم على نقد الجاحظ لاساتيذه ولسنا نتكلم على وجه الصواب او الخطأ في هذا النقد .

---

(١) العمدة لابن رشيق (الجزء الثاني ص ٨٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا ماانتهى الينا من تخريج الجاحظ في الادب والى جنب هؤلاء العلماء عالم في طبقة مخالفة عن طبقاتهم قد اثر في الجاحظ من ناحية غير الناحية التي اثروا فيها فلئن كان لابي عبيدة والاصمعي وابي زيد الانصاري والاخفش ابي الحسن اثر بليغ في تثقيف عقل الجاحظ من جهة الادب فقد كان للنظّام اثر ابلغ في تثقيف هذا العقل من جهة الدين والعلم .

والتلميذ محمول على تقليد أستاذه وربما قلده في حركاته وسكناته وفي مشيته .

يقول الجاحظ في النظّام [١] :

« الاوائل يقولون : في كل الف سنة رجل لانظير له فان كان ذلك صحيحاً فهو ابو اسحاق النظام » .

وقال فيه في مقام آخر [٢] :

« مارأيت احداً أعلم بالكلام والفقه من النظام » .

وقال ايضاً في كلام له على تأثير النظّام في المعتزلة [٣] :

« أنهج لهم سبلاً وفتق لهم اموراً واختصر لهم ابواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة » .

صور لنا الجاحظ أستاذه ابا اسحق النظّام في صور شتى فمرة كان يعرض علينا طبيعة نظره وتمييزه فقد قال [٤] :

« وكان ابراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزيغ في باب الصدق والكذب ولم أزعم انه قليل الزيغ والزلل على ان ذلك قد كاد يكون منه وان كان قليلاً بل انما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء وانت لست تريد حياء البتة وذلك انهم ربما وضعوا القليل في موضع ليس وانما كان عيبه الذي لايفارقه سوء ظنه وجودة قياسه على العارض والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله فلو كان بدل تصحيحه القياس التماس تصحيح الاصل الذي

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص٢٩) . (٢) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص٣٠) .
(٣) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) .
(٤) الحيوان (الجزء الثاني ص٨٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان قاس عليه أمره على الخلاص ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء امره كان ظناً فاذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه ولكنه كان لا يقول سمعت ولا رأيت وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه أو عن معاينة قد بهرته » .

ومرة كان يعرض علينا مبلغ ثقة اصحابه به فقد قال [1] :

« وكنا لا نرتاب بحديثه اذا حكى عن سماع او بيان » .

وحيناً كان يصف لنا مقدار حمله السر فقد قال [2] :

« وكان ابواسحق ابراهيم بن سيار النظّام أضيق الناس صدراً بحمل سره ، وكان شر مايكون اذا يؤكد عليه صاحب السر ، وكان اذا لم يؤكد عليه ربما نسي القصة فيسلم صاحب السر . وقال له مرة قاسم التمّار : سبحان الله مافي الارض أعجب منك أودعتك سراً فلم تصبر عن افشائه يوماً واحداً والله لأشكونّك للناس فقال : ياهؤلاء سلوه نمت عليه مرة واحدة او مرتين اوثلاثاً اواربعاً فلمن الذنب فلم يرض بان يشاركه في الذنب حتى صيّر الذنب كله لصاحب السر » .

وحيناً كان يصف لنا اخلاقه فقد قال [3] :

« وكان انفاً شديد الشكيمة ابّاء للهضيمة » .

هذا بعض ماتصل بنا من آراء الجاحظ في أستاذه النظّام واني ارى ان اذكر لكم من اليوم نماذج من مذاهب النظّام في الدين والفلسفة والعلم وانماطاً من تهكمه وخصائص عقله حتى تعرفوا من هو الرجل الذي اثر في الجاحظ من نواحٍ كثيرة .

ابراهيم بن سيار بن هانئ النظّام رئيس من رؤساء المعتزلة وقد انفرد عن اصحابه بمسائل تبعه فيها جماعة سموا بالنظّامية ، فاعتزاله يدور على قواعد معينة ذكرها الشهرستاني في كتاب الملل والنحل فلا محل للافاضة في ذكرها في مثل هذا المقام ولكنني لا أرى بأساً ببيان بعض آرائه في الدين ، من هذه الآراء ان استواء الطاعات يؤدي الى

---

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٠٦) . (٢) الحيوان (الجزء الخامس ص ٦١) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص ١٣٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استواء اهلها في الثواب وكذلك الحال في المعاصي قال الجاحظ [١] :

« وزعم ابواسحق ان الطاعات اذا استوت استوى اهلها في الثواب وان المعاصي اذا استوت استوى اهلها في العقاب واذا لم يكن منهم طاعة ولا معصية استووا في التفضيل وزعم ان أجناس الحيوان يحس ويألم في التفضيل سواء » .

فكأن النظّام يريد بهذا القول ان الله عزّ وجلّ ينظر الى الناس اذا استوت طاعاتهم او معاصيهم نظرة واحدة فلا يقدم صالحاً على صالح ولا يؤخر طالحاً عن طالح وكذلك نظره الى كل حيوان ذي شعور فلا يفضل ديكاً على كلب ، مثلاً وان رأياً مثل هذا الرأي يدلنا على طبيعة المباحث الدينية التي كانوا يبحثونها في عصر الجاحظ .

وقريب من هذا الرأي قوله في دخول الأطفال الجنة وفي الفرق بين الاطفال وبين البهائم فاليكم هذا القول على نحو ما اشار اليه الجاحظ وهو لا يخلو من يسر ومسامحة [٢] .

« وزعم ان اطفال المشركين والمسلمين كلهم في الجنة وزعم ان ليس بين الاطفال ولا بين البهائم فرق وكان يقول : ان هذه السبعية والبهيمية لا تدخل الجنة ولكن الله عزّ وجلّ ينقل تلك الارواح خالصة من تلك الآفات فيركّبها في اي الصور الحسان أحبّ » .

ولما قالوا بقتل الكلب وأشباهه ردّ عليهم بما يلي ، قال الجاحظ [٣] :

لما قال معبد في قتل الكلب وتلا قول الله عزّ وجلّ : واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص . قال ابواسحق : وان كنت انما جعلت الكلب شرّ الخلق بهذه العلة فقد قال على نسق هذا الكلام : ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ، فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم فأسقط من اقدارها

---

(١) الحيوان (الجزء الثالث ص١٢٢) . (٢) الحيوان (الجزء الثالث ص١٢٢) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص١٧٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقدر معنى الكلام وادنى ذلك ان تشرك بين الجميع في الذم فانك متى انصفت في هذا الوجه دعاك ذلك الى ان تنصفها في تتبع مالها من الاشعار والامثال والاخبار والآيات كما تتبعت ما عليها » .

ولا ارى لي مندوحة عن التنبيه على رأيه في بعض المفسرين لمشاركة الجاحظ له في هذا الرأي على نحو ما يتبين لنا هذا في كلامنا على دين الجاحظ ، كان ابو اسحق يقول [1] :

« لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين وان نصبوا انفسهم للعامة واجابوا في كل مسألة فان كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير اساس وكلما كان المفسر اغرب عندهم كان أحب اليهم وليكن عندكم عكرمة والكلبي والسدي والضحاك ومقاتل بن سليمان وابو بكر الأصم في سبيل واحدة فكيف أثق بتفسير واسكن الى صوابهم وقد قالوا في قوله عزّ وجلّ : وان المساجد لله ، ان الله عزّ وجلّ لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها بل انما عنى الجباه وكل ما يسجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة وقالوا في قوله تعالى : أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت انه ليس الجمال والنوق وانما يعني السحاب واذا سئلوا عن قوله : وطلح منضود قالوا الطلح هو الموز ، وجعلوا الدليل على ان شهر رمضان قد كان فرضاً على جميع الامم وان الناس غيروه ، قوله تعالى : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، وقالوا في قوله تعالى : ربّ لمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قالوا يعني انه حشره بلا حجة ، وقالوا في قوله تعالى : ويل للمطففين الويل وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفون ذلك الوادي ومعنى الويل في كلام العرب معروف وكيف كان في الجاهلية قبل الاسلام وهو من أشهر كلامهم ، وسئلوا عن قوله تعالى : قل اعوذ برب الفلق ، قالوا : الفلق وادٍ في جهنم ثم قعدوا يصفونه ، وقال آخرون : الفلق المقطرة بلغة اليمن ، وقال آخرون في قوله تعالى : عيناً فيها تسمى سلسبيلا قالوا : أخطأ من واصل بعض هذه الكلمة ببعض ، قالوا : وانما هي سل سبيلاً اليها يا محمد ، فان كان كما قالوا فأين معنى تسمى وعلى اي شيء وقع قوله : تسمى ، فتسمى ماذا وماذلك الشيء ... » .

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ١٦٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا من ناحية بعض معتقدات النظّام في الدين اما من ناحية الفلسفة فاليكم رأيه في مذهب الشكاك فقد قال [١] :

« نازعت الملحدين والشكاك فوجدت الشكاك أبصر بجوهر الكلام من اصحاب الجحود » .

وقال في موطن آخر [٢] :

« الشاك اقرب اليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل احد عن اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

فاذا عرفنا طائفة من آرائه في الدين والفلسفة فلا بأس بان نعرف شيئاً من ناحيته العقلية فقد كان مطبوعاً على البحث عن اصل كل شيء وعن علته دون ان يقتصر على الانقياد والتقليد وهذا من خصائص الجاحظ نفسه ، فقد قال [٣] :

« بلغني وانا حدث ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن اجتثاث فم القربة والشرب منه ، قال : فكنت أقول ان لهذا الحديث لشأناً وماني الشرب من فم القربة حتى يجيء فيها هذا النهي ، حتى قيل ان رجلاً شرب من فم قربة فوكعته حية فمات وان الحيات تدخل في افواه القرب علمت ان كل شيء لا اعرف تأويله من الحديث ان له مذهباً وان جهلته » .

من هذا يتبين لنا ان النظّام لا يؤمن بالامور قبل ان يعمل عقله في اصل هذه الامور وهذه صفة من صفات الجاحظ تظهر لنا في الآتي .

واليكم مايدل على حسن تصرفه في الاختبار والامتحان فقد قال [٤] :

« اذا أردت ان تعرف مقدار الرجل العالم وفي اي طبقة هو واردت ان تدخله الكير وتنفخ عليه ليظهر لك فيه الصحة من الفساد فكن عالماً في صورة متعلم ثم اسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجته منه » .

---

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) . (٢) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) .
(٣) الحيوان (الجزء الرابع ص ٨٨) .
(٤) الحيوان (الجزء السادس ص ١١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على ان النظّام لم يكتف بطلب الفلسفة والكلام وانما عكف على طلب العلم ولا سيما علم الطبيعة وكان الجاحظ ينقل عنه ، ولا بأس بان أُشير الى نموذج من آرائه في هذا العلم فأشير الى رأيه في انتشار الضياء والحرارة دون ان اتعرض لصحة هذا الرأي او لفساده وانما اكتفي باثباته في هذا المقام حتى نعرف كيف كانت مباحثهم عن الطبيعة في عصرهم اذ ان الضياء والحرارة معروف امرهما في عصرنا هذا فلا ارى حاجة الى الخوض في مثل هذا المعنى ، قال ابو اسحق [1] :

« النار اسم للحرق والضياء فاذا قالوا : احرقت او سخّنت فانما الاحراق والتسخين لأحد هذين الجنسين المتداخلين وهو الحر دون الضياء وزعم ان الحر جوهر صعاد وانما اختلفا ولم يكن اتفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما لانهما متى صارا من العالم العلوي الى مكان صار احدهما فوق صاحبه وكان يجزم القول و يبرم الحكم فان الضياء هو الذي يعلو اذا انفرد ولا يعلي ، قال : ونحن انما صرنا اذا اطفأنا نار الأتون وجدنا ارضه وهواه وحيطانه حارة ولم نجدها مضيئة لان في الارض وفي المادي الذي قد لابس الارض حراً كثيراً وتداخلاً متشابكاً وليس فيها ضياء وقد كان حر النار هيّج تلك الحرارة فأظهرها ولم يكن هناك من ضياء ملابس فيهيجها الضياء و يظهرها كما اتصل الحر بالحر فأزاله من موضعه وابرزه من مكانه فلذلك وجدنا ارض الأتون وحيطانها وهواها حارة ولم نجدها مضيئة » .

ولقد كان النظّام مع هذا العلم ومع هذه الفلسفة يميل الى التنكيت في بعض الأحوال ، قال الجاحظ [2] :

« وانشد ابراهيم بن هانيء وعبدالرحمن بن منصور :

جنونك مجنون ولست بواحد طبيباً يداوي من جنون جنون

وكان ابراهيم لا يقيم شعراً ولا ادري كيف أقام هذا البيت وكان يدعي بحضرة ابي اسحق علم الحساب والكلام والهندسة واللحون وانه يقول الشعر فقال ابواسحق نحن لم

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ٢) .

(٢) الحيوان (الجزء الثالث ص ٣٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نمتحنك في هذه الامور فلك ان تدعيها عندنا ، كيف صرت تدعي قول الشعر وانت اذا رويته لغيرك كسرته ، قال : هكذا فاني طبعت ان اقيمه اذا قلت واكسره اذا انشدت ، قال ابواسحق : ما بعد هذا الكلام كلام ! » .

فقوله : ما بعد هذا الكلام كلام لايخلو من تنكيت باطن .

* * *

بقي ان نعرف بعض ماوقع الينا من طبيعة الكتب التي كان يقرؤها الجاحظ في حياته حتى نعلم بعناصر ثقافته بحذافيرها .

سمع الجاحظ من الفلاسفة وقرأ كتب الاطباء والمتكلمين فضلاً عن كتب الأدب التي تبحث عن اللغة والنحو والنوادر والاخبار والاشعار والغرائب وما شابهها وقرأ كتباً غيرها نقل عنها منها : كتاب الفراسة لاقليمون وكتاب طباع الالبان لصاحبه ماسرجويه وكتاب المنطق لارسطاطاليس وكتاب إقليدس ونقل عن بختيشوع وعن حنين وعن جالينوس وعن صاحب الديك وغيرهم .

فقد نظر في الذي اودعته الاوائل كتبها وخلّدته من عجيب حكمتها ودوّنته من أنواع سيرها بحيث أصبح له اطلاع عام على الأفكار والمعاني فهو من هذا الباب كامل من الكملة وأريد بالكامل من اخذ من كل شيء بطرف واذا تكلمنا على عبقريته في الآتي تبينت لنا نتائج ثقافته العامة فلم يخف عليه موضوع من الموضوعات قد يجوز انه لايتعمق في الموضوع تعمق اهل الاختصاص الا انه قد يلمّ به الماماً بحيث لايكون غريباً عنه وقد طبعت قراءته الكتب على مختلف معانيها ثقافته بطابع خاص واعني بالطابع الخاص تنوع أفكاره ومعانيه حتى أصبح خصيب العقل لاتشكو منه قحطاً في فكر اوجدباً في معنى .

لم تخل ثقافته من عناصر يونانية وفارسية فانه على الرغم من انقياد ادب العرب له وعلى الرغم من دفاعه عن هذا الادب في مواطن شتى من كتبه ماتذمم من الاخذ عن اليونانيين او عن الفرس فقد ذكر الامم التي فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم فقال : هذه الامم اربع ، وهي : العرب والهند وفارس والروم .

ورأى ان العرب أنطق وان لغتها اوسع وان لفظها ادلّ وان اقسام تأليف كلامها اكثر والأمثال التي ضربت اجود واسير والبديهة مقصورة عليها والارتجال والاقتضاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خاص فيها [١] .

وكره الشعوبية وطعن عليهم :

« واعلم انك لم تر قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا اشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً ولا أقل غنماً من اهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جشوم الحسد على اكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة وتسعّر تلك النيران المضطرمة ولو عرفوا اخلاق كل ملة وزي كل لغة وعللهم في اختلاف اشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيآتهم وما علة كل شيء من ذلك ولم اختلقوه ولم تكلفوه لأراحوا انفسهم وتخففت مؤنتهم على من خالطهم [٢] .

ومع هذا كله فما كان يستنكف عن ان يقول : قال جالينوس وقال صاحب المنطق وقال بختيشوع وأضرابهم فالجاحظ نزّاع الى التجديد فهو لا يرى بأساً بان يدخل العربية عنصر من عناصر آداب الامم المعروفة في عصره المشهورة بالعلم والحكم والأخلاق والآداب ، واي ادب لم يعمل فيه ادب غيره .

« اي ادب من الآداب لم يؤثر فيه ادب غيره ولسنا نعرف ادباً قومياً محضاً مستقلاً كل الاستقلال وقد يذهب وهمنا الى ان الأدب اليوناني مصبوغ بمثل هذه الصبغة وانما نتوهم هذا لأن الأدب اليوناني قد عاش وحده دون بقية الآداب التي كانت في عصره وقد يؤثر ادب وسط في ادب اعلى منه على شرط ان يكون هذا الادب الوسط فيه شيء من الغرابة والجدة .

الجدّة انما هي غذاء الأدب وهل تأتي هذه الجدّة الا من ادب غيره اننا لا نستطيع ان نتغذى بمواد بدننا وحدها لقد اقتبست فرنسة عناصر ابداعها عن آداب غيرها من الامم وقد كان هذا الابداع يتجدد في كل عصر وقد اقتبست آداب اوربة على اختلافها معظم مادتها التي سكر بها أعاظم العبقريين عن الادب الفرنسي ، هل من سبيل الى فهم (غوتي) مجرداً من الثقافة الفرنسية ؟ ام هل من سبيل الى فهم (شاتوبريان) مجرداً من

---

(١) البيان والتبيين (الجزء الاول ص ٢٠٤) .

(٢) البيان والتبيين (الجزء الثالث ص ١٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الثقافة الانكليزية [١] .

فالجاحظ لم تخل ثقافته من عنصر يوناني ولا يبعد انه كان يعرف الفارسية ولست أقول هذا استناداً الى طائفة من الألفاظ الفارسية التي أوردها في بعض كتبه وفسرها فهذا غير كاف ان يستدل به على معرفته الفارسية فلا يخلو عصرنا من جماعة يعرفون بعض الفاظ أعجمية ثم يزعمون انهم واقفون على أسرار اللغة التي تدخل فيها هذه الألفاظ وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يذهبون الى البحث عن اشتقاقات الألفاظ وردها الى اصولها وهم جاهلون بالفروع و بالاصول وهذا منتهى الخلط والتدجيل . وانما الجاحظ تغلغل في بعض الأحيان في أسرار الفارسية فلم يقتصر على ذكر اللفظة ومعناها فمن قوله :

« والفرس تسمي الاشياء بالاشتقاقات كما نقول للنعامة : اشترمرغ وكأنهم في التقدير قالوا : هو طائر وجمل فلم نجد هذا الاسم أوجب ان تكون النعامة نتاج ما بين الإبل والطير ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين سموها بذينك الشيئين وهم يسمون الشيء المرّ الحلو : ترش شيرين وهو في التفسير « حلو حامض » [٢] .

وقال في مقام آخر [٣] :

فالجاموس بالفارسية « كاوماش» وتأويله : ضاني بقري لانهم وجدوا فيه مشابهة الكبش وكثيراً من مشابهة الثور » .

وقد كانت الفارسية مستفيضة حتى انهم كانوا يدخلون شيئاً منها في الشعر نفسه كقول المعاني للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها :

من بلقه من بطل مسرند في زغفة محكمة بالسرد
يجول بين رأسه و (الكرد)

قال الجاحظ والكرد «العنق» .

و يقول المعاني في الرشيد ايضاً :

---

(١) النزه الادبية — السلسلة السابعة لصاحبها (Remy de Gourmont) (ص١٠٧) . (٢) الحيوان (الجزء الاول ص ٦٥) . (٣) الحيوان (الجزء الاول ص ٦٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لما هوى بين غياض الأسد وصار في كف الهزبر الورد
آلى يذوق الدهر (آب سرد[١])

ودليل آخر على استفاضة الفارسية في كلام العرب قول الأصمعي[٢] :
« ثلاثة تحكم لهم بالمروءة حتى يعرفوا : رجل رأيته راكباً ، اوسمعته يعرب اوشممت منه رائحة طيبة .
وثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا : رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل او سمعته يتكلم في مصر عربي بالفارسية او رأيته على ظهر الطريق ينازع في القدر » .

***

هذا مارأيت ان اذكره من ثقافة الجاحظ وهذه هي عوامل ثقافته : قراءته الادب والدين والعلم والفلسفة على أساتيذ كانوا الأمثال في مذاهبهم وافتباسه عن علم اليونانيين في بعض الاحيان ومطالعته لكتب في موضوعات شتى ثم خواطره وتجاربه ومعايناته . فقد كان مولعاً بقراءة الكتب حتى قال ابوهفان[٣] : « لم ار قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم اكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى انه كان يكتري دكاكين الوراقين و يبيت فيها للنظر .
وقد تظهر لنا آثار هذا الولع في الفصل الذي عقده في الكلام على الكتب فقد تفنن في هذا الكلام التفنن كله .

ثمرة يجد في الكتب النزهة والانس والظرف والمزاح[٤] :
« والكتاب نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعدة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشغل والحرفة ونعم الانيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ... والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشي ظرفاً وانا اشحن مزاحاً وجداً ... ان شئت ضحكت من نوادره وان

---

(١) البيان والتبيين (الجزء الاول ص ٧٩) . (٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ص٢٩٦) . (٣) معجم الادباء (الجزء السادس ص ٥٦) .
(٤) الحيوان (الجزء الاول ص ١٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شئت عجبت من غرائب فرائده وان شئت الهتك طرائفه وان شئت اشجتك مواعظه ...»
ومرة يجد فيها آثار العقول ونتائج العصور [١] .

« ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمع لك الكتاب »

وحيناً يجد فيها شحذ الطباع وتجييح النفس [٢] :

« والكتاب هو الذي ان نظرت فيه أطال امتاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجوّد بيانك وفخم الفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك» .

وحيناً يجد فيها الاستغناء عن ملابسة صغار الناس وما ينتج عنهم [٣] :

« ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك الاّ منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارّة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ومن فضول النظر ومن عادة الحرص ومن ملابسة صغار الناس وحضور الفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة واخلاقهم الرديئة وجهالاتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ... »

والخلاصة انه يجد الكتب اشد تقييداً للمآثر على ممر الايام والدهور من البنيان [٤] :

« وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ويذهب العقل ويبقى اثره ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها وخلّدت من عجيب حكمتها ودوّنت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ماغاب وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا مالم نكن ندركه الاّ بهم لما حسن حظنا من الحكمة ولضعف سببنا الى المعرفة ولولجأنا الى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة وسقطت الهمة

---

(١) الحيوان (الجزء الاول ص ٢١) . (٢) الحيوان (الجزء الاول ص ٢٦) .
(٣) الحيوان (الجزء الاول ص ٢٧) .
(٤) الحيوان (الجزء الاول ص ٤٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وارتفعت العزيمة وعاد الرأي عقيماً والخاطر فاسداً و لَكَلَّ الحدّ وتبلد العقل » .

الى آخر ماجاء في هذا الفصل البليغ الذي يدلنا على قدرة الجاحظ على الانشاء . ولقد شحذت الكتب فهمه وفلقت عقله وأرهفت طباعه ، وان ر بلاً هذه هي مبالغ ثقافته وهذا هو مقدار ولعه بالكتب لانعجب من خصب عبقريته واذا شئنا ان نحيط بهذا الخصب فلنرجع الى فهرست كتبه .

فكأن الجاحظ قد أُمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ماقدر عليه من أصناف الموضوعات فلم يكن غفلاً من كل مايجري فيه الناس ويخوضون فيه ، فاذا اردنا ان نصفه بكلمة قلنا فيه انه كامل على نحو قول الافرنجة في امثاله : فلان Encyclopédiste والصحيح ان الجاحظ قد لخص معارف عصره فهو في هذا الباب يشبه ارسطاطاليس في القديم ، وقد هيأته ثقافته لهذا التلخيص .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net